مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد الخامس

1988م.

- المعارف اللازمة للداعية
- المحاولات الإستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر
- منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي
- الفكر التربوي بين الأصالة والتغريب
- جامعة الزهراء جامعة علمية يخسرها العالم الإسلامي

احتلال البرتغاليين مدينة سبتة المغربية

مقدماته ودوافعه ونتائجه

(818 هـ /1415 م)

الدكتور
أمين الطيبي

نبذة عن مملكة البرتغال إلى مطلع القرن الخامس عشر:

كانت مقاطعةُ برتغال في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي تشغل رقعةً صغيرةً تقع بين نهريْ مينه Minho ودويرُه Douro ولّى عليها الفونس السادس ملكُ قشتالة وليون - وكانت تتبعه - صهرَه هنري/ هنريق الفارسَ البرجنديَّ الذي كان قد قَدِم إلى شبه جزيرة إيبرية لمحاربة المرابطين بعد انتصارهم الكبير في وقعة الزلاقة (479 هـ/1086م). وقد استطاع أفونسو ابن هنريق - الذي تشير

إليه المصادر العربية بابن الريق ـ أي ابن هنريق أن يستقل عن مملكة قشتالة وليون، وأن ينصّب نفسه ملكاً على برتغال. ويؤرخ البرتغاليون بدايةَ استقلال بلادهم بسنة 1139 م، وفيها أحرز ابن الريق ـ كما تقول الروايات المسيحية ـ انتصاراً على قوة مرابطية في أوريق Ourique ـ بالقرب من شنترين ـ وبادر على الأثر بالمناداة بنفسه ملكاً متخذاً من مدينة قُلُمْريُه Coimbra عاصمةً له. وإلى الجنوب من قُلُمريُه كانت شنترين ولشبونة ومعظمُ أراضي البرتغال الحالية تشكّلُ جزءاً من غرب الأندلس الإسلامي.

وفي عام 542 هـ/ 1147م ـ وبمساعدة أسطولٍ صليبي قادمٍ من شمال أوروبا كان في طريقه إلى فلسطين ـ استولى ابنُ الريق على لشبونةَ من أيدي المسلمين، مغتنماً فرصةَ انشغال المرابطين بقيام الموحدين عليهم في المغرب. وبعد أخذ لشبونة، هاجم أسطولُ ابن الريق اشبيلية وسبتة. وكان للشبونة الإسلامية ـ كما كان لإشبيلية ـ تجارة نشطة مع مدينة سبتة، حيث كانت تقيم جاليةٌ من التجار الجنوبيين في القرن الحادي عشر. وقد ساهم الجنوبيون في استيلاء القشتاليين على إشبيلية عام 1248 م، ثم امتد نشاطهم التجاري إلى لشبونة وغرب الأندلس وبالاستيلاء على مدينة شلب عام 1249 بلغت البرتغالُ حدودَها الحالية، وقامت بإجلاء السكان المسلمين عن أراضيها قبل سقوط غرناطة بأكثر من قرنين. ومما يُذكر أن النظُمَ الديريةَ العسكريةَ ـ كالإسبتارية والراوية ونظاميْ قلعة رياح شانت ياقب ـ قامتْ بدورٍ كبيرٍ في محاربة المسلمين وإجلائهم عن غرب الأندلس[1].

وبعد خلافات على الحدود بين البرتغال وقشتالة، اتُّفق بموجب معاهدة صلحٍ عُقدتْ بينهما في بَطَلْيوس في مطلع عام 1267 م، على أن يتنازل ملكُ قشتالةَ للبرتغال عن كافة ما كان يدّعيه من حقوق في اقليم الغرب Algarve. وكان ملكُ البرتغال قد قدَّم العونَ لقشتالة في قمعها لثورة المسلمين المدجَّنين بإشبيلية عام 1264 م[2].

وقد شارك البرتغاليين بألف فارس في وقعة طريف (741 هـ/ 1340 م) إلى

(1) Boxer, C.R., **The Portuguese Seaborne Empire (1415- 1825)**, Penguin Books 1978, P.4.

(2) Atkinson, W.C., **A History of Spain and Portugal**, Penguin Books 1967, P. 91.
O'Callaghan, J. F., **A History of Medieval Spain**, Cornell V.P. 1975, P. 369.

جانب ملك قشتالة ضد قوات المسلمين من المغرب وغرناطة، وكانت وقعةً حاسمةً، ويقال إن المدفعية استُخدمت فيها لأول مرة في أوروبا[3].

واجتاح البرتغالَ ـ كبقية بلدان أوروبا وحوض البحر المتوسط ـ وباءُ الطاعون الجارفُ المعروفُ بالموت الأسود عام 8 -1349 م، فهلك بسببه خلق كثير، وكان لذلك آثار اقتصادية واجتماعية خطيرة.

وفي عام 1384 م، قامت بين قشتالة والبرتغال حرب بسبب مطالبة ملك قشتالة بعرش البرتغال إثر وفاة ملك البرتغال فرناندو دون عقب، واختير جون/ خوان أفيس حامياً لعرش البرتغال، فأصبح بطلَ استقلال بلاده ومؤسساً لأسرة مالكة جديدة ـ أسرة أفيس ـ بعد الانتصار الكبير الذي أحرزه على القشتاليين في معركة الجوباروتا Aljubarrota في منتصف اغسطس عام 1385 م. وقد وطّدت معركةُ الجوباروتا استقلالُ البرتغال وأعلتْ من شأن جون أفيس الذي نال شهرةَ ابن الربق مؤسسِ المملكة. وقد مثّل انتصارُ البرتغاليين في الجوباروتا انتصارَ الطبقة البرجوازية النامية في لشبونة وأبورتو، التي قاوم أفرادُها تدخلَ قشتالة في شؤون البرتغال، بخلاف طبقة أصحاب الأراضي من النبلاء التي انحاز الكثيرون من أفرادها إلى جانب قشتالة. وعُقدت هدنة طويلة بين قشتالة والبرتغال إلى أن انتهت رسمياً عام 1411 م الحربُ بين البلدين، فاستطاع جون أفيس أن يصرف اهتمامه إلى أمور أخرى كانت حملةُ سبتة في مقدمتها[4]. وفي عهد الملك جون الأول (حَكَم 1384 -1433 م) حقّقت البرتغال وحدةً وتركيزاً للموارد لم يسبقْ من قبل، ومع ذلك، فإن مملكة البرتغال ظلّتْ مملكةً صغيرةً لا يُحسب لها حساب في الشؤون الأوروبية، ولكن المملكة نعمتْ بالإستقرار وبشيء من الرخاء، وكانت تحتلّ موقعاً استراتيجياً[5].

إن معظمَ أراضي البرتغال في أواخر القرون الوسطى كانت بوراً غير مفلوحة بعد إجلاء سكانها المسلمين. وكان سكانُ البلاد لا يتجاوزون المليون

---

(3) Atkinson, P. 89. Lomax, D.W., **The Reconquest of Spain,** New York 1978, P.167.

(4) O'Callaghan, PP. 5323.

(5) Payne, S.G., **A History of Spain and Portugal,** Vol. I, Univ. of Wisconsin 1976, P. 191.

نسمة معظمهم من الفلاحين الذين يزرعون الحبوب ويُنتجون زيت الزيتون والنبيذ، بينما كان سكانُ الساحل يزاولون صيد الأسماك واستخراجَ الملح. وكان الفقرُ يسود المناطقَ الداخليةَ والجبليةَ حيث المساكن في معظمها أكواخ، وإليها كان يشير المؤرخ البرتغالي المعاصر دي زورارا عند حديثه عن دهشة الغزاة البرتغاليين وانبهارهم لما عاينوه من منازل المسلمين ورفاهيتها عند استيلائهم على سبتة، إذ قال «إن مساكننا الوضيعة تبدو كأحواش الخنازير بالمقارنة بها».

وكان الاقتصادُ البرتغاليُّ في الأرياف يقوم على المقايضة، ولم تُضرب عُمْلةٌ ذهبيةٌ بالبرتغال ما بين عامي 1385 و1435 م، وكانت العُملة المتداولةُ في معظمها من النحاس[6].

تردِّي العلاقات بين المغرب وغرناطة قُبيْل سقوط سبتة:

بعد وفاة السلطان المريني أبي فارس (774هـ/ 1372 م)، أخذ سلطانُ غرناطة محمد الخامس في تعزيز نفوذه في المغرب الأقصى، فاستولى في سنة 1374 م على جبل طارق من أيدي المرينيين. ولما رفض سلطانُ المغرب الصغيرُ السن أبو زيان التنازلَ عن مدينة سبتة لسلطان غرناطة، بعث هذا إلى المغرب بأميريْن من بني مرين كانا لاجئين في غرناطة ويطالبان بعرش المغرب، وأمدَّهما بالعون، فاستوليا على شمال المغرب، وحاصرا مدينةَ فاس مما أدى إلى خلع أبي زيان. وأصبح أحدُ الأميرين - أبو العباس أحمد المستنصر - سلطاناً في فاس سنة 1374 م، وأصبح الأميرُ الآخر - عبدالرحمن بن تفلوسين - والياً على مراكش. وقد أذعن سلطانُ فاس الجديد أبو العباس لطلب سلطان غرناطة، وتنازل له عن مدينة سبتة[7].

وبعد وفاة السلطان أبي العباس (796هـ/ 1393م)، مكَّنت المنازعاتُ على العرش في فاس ملكَ غرناطة - يعضده في ذلك صاحبُ قشتالة - من إبقاء المغرب في حالةٍ من الفوضى - بمساندته المطالبين بالعرش - وذلك لكي يحقق طموحاتِه

---

(6) Boxer, PP. 4- 5, 13.

(7) Abun- Nasr, J.M., **A History of the Maghrib**, Cambridge V.P. 1975, P. 133.

التوسعيةَ على حساب المغرب. وردَّ السلطانُ المرينيُّ أبو فارس على ذلك بالسماح لغزاة البحر المغاربة بمهاجمة المراكب الإسبانية والأندلسية. وثأرا لذلك، قام صاحبُ قشتالة هنري الثالث ـ مغتنماً فرصةَ انشغال السلطان المريني بمحاصرة تلمسان ـ بمهاجمة مدينة تطوان، فدمَّرها وفتك بنصف سكانها واسترقَّ الباقين، مما أثار في المغرب موجةً من الحماس الديني والوطني أدى إلى دحر القشتاليين. كما أن البرتغاليين استفادوا كذلك من متاعب المغرب. ففي سنة 814هـ/ 1 -1412 م، قامت في المغرب حربٌ أهليةٌ وتعرَّضت مدينةُ فاس للحصار ثلاث مرات في سنة واحدة. ولما تمكَّن سلطانُ فاسٍ من السيطرة على أراضيه، وانسحب القائمُ عليه في مدينة سبتة إلى غرناطة آخذاً معه أسطولَ سبتة العتيد، أصبحت مدينةُ سبتة ـ دون أسطولٍ يحميها ـ عرضةً لهجوم البرتغاليين عليها[8].

مدينة سبتة قُبَيْل العدوان البرتغالي عليها:

تتحكَّم مدينةُ سبتة بالملاحة في مضيق جبل طارق، وظلَّت ـ بحكم ضيق المجاز وصلتها الوثيقة بالأندلس ـ أندلسيةَ الطابع. وقد غصَّت بالنازحين من الأندلس ابتداءً من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حينما أخذت قواعدُ المسلمين في الأندلس ـ كقرطبة واشبيلية ـ تتهاوى في يديْ قشتالة وأرجون.

واشتهرت مدينةُ سبتة بالتجارة براً وبحراً، وكان يقصدها تجارُ المدن الإيطالية ـ وبخاصة تجار جنوة ـ حيث كانت لهم فنادقُ فيها. كما كانت سبتة بدايةً لطرق القوافل المؤدية إلى غانة والسودان الغربي.

واشتهر أهلُ سبتة بركوب البحر وإنشاء المراكب، وكانت بالمدينة دارُ صناعةٍ لإنشاء السفن، كما كانت القاعدةَ الرئيسيةَ لأسطول الموحدين. وكان لرماة سبتة شهرةُ الأغزاز من التركمان.

كان من بين النازحين عن مدينة سبتة بعد سقوطها في أيدي البرتغاليين عام 1415 م الفقيهُ محمدُ بنُ القاسم بنِ عبدالملك الأنصاري السبتيُّ الدار والنشأة

---

(8) Julien, Charles- André, **History of North Africa,** London 1970, P. 207.
Livermore, H.V., **A New History of Portugal,** Cambridge V.P. 1976, P. 108.

والمولد، ووضع كتاباً ـ بعد سبع سنوات من سقوط المدينة ـ أسماه (اختصارُ الأخبار عما كان بثغر سبتة من سَنيِّ الآثار)، وفيه يستعرض معالمَ سبتة قُبيْل سقوطها، فيذكر مقابرها ومساجدها، وخزائنها العلمية ومحارسها، وأزقتها وحماماتها، وحوانيتها وفنادقها، وديار الإشراف فيها، ومطاميرها وطواحينها، وأرباضها وأبوابها، ومراميها ومقاصرها، ومراسيها ومصايدها. كما يتحدث عن أحواز سبتة فيذكر وفرةَ مياهها وغلاتها وفواكهها على مدار فصول السنة. ويتبين من هذا الثَبت المفصَّل أن مدينةَ سبتة كانت ـ حتى أوائلِ القرن الخامسَ عشرَ الميلادي ـ مدينةً تنعم بالرخاء والإزدهار والعمران، وأن سقوطَها في أيدي البرتغاليين كان كارثةً حلَّتْ بالمدينة وأهلها، إذ تعرَّضتْ المدينةُ لأعمال النهب والسلب والتقتيل، ونزح عنها معظمُ سكانها.

يذكر الأنصاري أنه كان بسبتة ألفُ مسجد، وأن عددَ الخزائن العلمية (المكتبات) بها اثنتان وستون خزانة، وأن عدد الروابط والزوايا سبعٌ وأربعون ما بين زاوية ورابطة. أما محارس المدينة فعددها ثمانيةَ عشر محرساً تمتد إلى اثني عشر ميلاً من خارجها من ناحيتيْ البحرين[9].

وكان بسبتة اثنان وعشرون حمَّاماً، ومائة وأربعة وسبعون سوقاً. أما المَنْجراتُ المُعدَّةُ لعمل القسيِّ فعددها أربعون مَنْجرة. ولما كانت سبتة ميناءً تجارياً يقصده التجار الأغراب، فإنها احتوتْ على نيِّفٍ وثلاثمائة فندقٍ لخزن الحبوب وإيواء المسافرين[10].

أما ديار الإشراف ـ حيث يقيم المُشرفون الماليون ـ فعددها أربعة: دارُ الإشراف على عَمالة الديوان أمام فنادق النصارى ـ وفنادقهم سبعة ـ ودارُ الإشراف لشدِّ الأمتعة وحلِّها، ودارُ الإشراف على البناء والتجارة، ودارُ الإشراف على سكة المسلمين[11].

---

(9) الأنصاري، محمد بن القاسم: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيِّ الآثار، الرباط 1983، ص 27 -29 -30 -32.

(10) المصدر السابق، ص 34 -36 -37 -38.

(11) المصدر السابق، ص 41 -42.

وكان بسبتة من المطامير لخزن الحبوب أربعون ألفاً، يمكث الزرعُ فيها «الستين سنةً والسبعين سنةً ولا يلحقه تغيُّرٌ لطيب البقعة واعتدال الهواء، ولكونها جبليةً، فسبتة في ذلك شبيهةٌ بقاعدة طليطُلة من بر الأندلس»[12].

ولما عُني أهلُ سبتة بالرمي لأغراض الدفاع عن ثغرهم، فقد كان بسبتة من المرامي ـ المعبَّر عنها بالجلَسات ـ أربعةٌ وأربعون مرمى للرماة «إذ الرميُ لأهل سبتة طُبعوا عليه، فلا تُلفي منهم شريفاً ولا مشروفاً، ولا كبيراً ولا صغيراً، إلا وله بصر بالرمي وتقدُّمٌ فيه، ومعظم رميهم بالقوس العقّارة، وهو من جملة الأشياء التي تميَّزوا بها»[13].

وكان الشريفُ الإدريسي ـ وهو من أبناء سبتة ـ قد نوَّه بمصائد الحوت بسبتة، فذكر أنه يُصاد بها من السمك نحوٌ من مائة نوع، ويصاد بها السمكُ المسمَّى التن الكثير، كما يُصاد ببحرها المَرْجان. وبسبتة ـ كما يقول الإدريسي ـ سوقٌ لتفصيل المَرْجان وحكّه وصُنعه خرَزاً وثقبه وتنظيمه، ومنها يتجهَّز به إلى سائر البلاد، وأكثرُ ما يُحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان، لأنه في ذلك البلاد يُستعمل كثيراً. وبعد الإدريسي بنحو ثلاثة قرون، يذكر الأنصاري أن بسبتة من المصايد مائتين وتسعةً وتسعين مصيداً مفترقة[14].

واشتهرتْ أحوازُ سبتة بوفرة مياهها وغلاتها، وبخاصة في قرية بَلْيونش إلى الجنوب من سبتة. ويذكر الأنصاري بليونش ـ ويرسمها بَنْيونش ـ فيتحدث عن كثرة وتعدد فواكهها الصيفية والشتوية والخريفية، بحيث توسق منها الأجفانُ وتسير إلى المغرب وبلاد الأندلس[15]. كما تكثر في منطقة سبتة الغاباتُ وبها ضروب الشجر، كالأرزْ والبلوط، مما يعود نفعُه على ثغر سبتة، ويستعان به

---

(12) المصدر السابق، ص 42.

(13) المصدر السابق، ص 47.

(14) الادريسي، محمد: وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، الجزائر 1957، ص 108.
الأنصاري، ص 51.

(15) الأنصاري، ص 53.

على إنشاء المراكب وما يرجع إلى الأمور الجهادية [16].

ويختتم الأنصاري كتابه قائلاً: «فانظرْ ما كان عليه هذا الثغرُ الشامخُ وما أُصيب به المسلمون... واللَّهَ اسأل أن يَمُنَّ بارتجاعه ويُعيدَه كما كان»[17].

دوافع العدوان البرتغالي على مدينة سبتة:

أ ـ دوافع دينية صليبية:

يتفق الباحثون على أن العاملَ الدينيَّ الصليبيَّ كان في مقدمة الدوافع للحملة التي جهَّزها البرتغاليون ضد مدينة سبتة. إن حملةَ سبتة كانت استجابةً للروح الصليبية التي عمَّتْ شبهَ جزيرة ايبرية مع تقدم حركة «الاسترداد» ونجاحها[18]. ولعلَّ ما أوحى بالهجوم على سبتة في المقام الأول الحماسُ الصليبيُّ لضرب المسلمين في المغرب ضربةً قاضية[19]. وقد عمل ملكُ البرتغال جون الأول وزوجته الإنجليزية فليبا لانكستر وأبناؤُهما الخمسة جاهدين على استمرار الحرب الصليبية التي بدا وكأن جَذْوتَها أخذتْ تخبو بعد أن تمَّ إجلاءُ المسلمين عن أراضي البرتغال ذاتها، فشُرع في حملة سبتة ـ أولى حملات البرتغال في الخارج ـ وهي دليلٌ على أن حربَ «الاسترداد» والفتوحَ التوسعيةَ كانا في أساسهما حرباً صليبيةً مقدسة[20].

ويُنسب إلى الأمير هنري قولُه لوالده وهو يحاول إقناعه بالموافقة على

---

(16) المصدر السابق، ص 56 -57.

(17) المصدر السابق، ص 57.

(18) Julien, P. 208.

(19) Boxer,P. 18.

وعما يذكر أن المبشر الميورقي رامون لَلْ Lull قدَّم المؤتمر ڤين Vienne بفرنسا في عام 1310 م ـ أي قبل أكثر من قرن من غزو البرتغاليين سبتة ـ اقتراحاً بتشكيل منظمة تضمُّ كافة الفرسان النصارى وعليها أن تعمل ـ دون انقطاع ـ لاحتلال الأراضي المقدسة (فلسطين) ويكون أول مهامها «احتلال سبتة والقسطنطينية لاتخاذهما قاعدتين لشن الهجمات ضد المسلمين». يُنظر:

E.Allison Peers, **Roman Lull: A Biography**, London 1929, P. 351.

(20) Atkinson, P. 98.

حملة سبتة إنه لا وَجْهَ للمقارنة بين عداء قشتالة المسيحية للبرتغال وبين عدائها «للكفار الذين هم أعداءُ طبيعيون لنا»[21]. ولما استشار الملكُ جون الأول أحدَ كبار مستشاريه بشأن الحملة المقترحة ضد سبتة، أجابه قائلاً: يبدو لي أن هذه الخطةَ ليستْ من بنات أفكارك، وإنما هي بوحيٍ من الله»[22].

كان الأمير هنري - بوصفه رئيساً لنظام المسيح الدَيْري العسكري Order of Christ - وريثاً لتقليد صليبي طويل. ولما لم يكن قد بقي ما يمكن تحقيقه في هذا المجال في البرتغال ذاتها بعد إجلاء المسلمين عن أراضيها في منتصف القرن الثالثَ عشرَ الميلادي، فإن هنري أراد مواصلةَ هذا التقليد الصليبي في ديار الإسلام في المغرب، لمحاربتهم بل والعمل على تنصيرهم. وقبيْل إقلاع سفن الأسطول صَوْبَ سبتة، ماتت الملكةُ فليبا وكان لها دَوْرٌ كبيرٌ في اذكاء الروح الصليبية في نفوس أبنائها وفي صفوف المحاربين[23].

وكان البرتغاليون يحسبون أن ثمةَ إلى الجنوب من المغرب شعوباً وثنيةً يمكنهم تنصيرُها والتحالفُ معها ضد المسلمين في المغرب[24].

إن البرتغاليين كانوا صليبيين قبل أن يصبحوا ملاحين يجوبون البحار، واحتفظتْ البرتغالُ بالروح الصليبية حتى الرُبع الأخير من القرن السادسَ عشرَ الميلادي بعد أن كانت غيرها من الدول قد تخلّتْ عن الفكرة الصليبية، واستعاضت عنها بالسعي لتحقيق مآربَ ماديةٍ صِرْفة. وعلى ذلك، فإن من غير المدهش أن يكون السببُ الرئيسيُّ للهجوم على سبتة سبباً صليبياً. واستمر تغلغلُ البرتغاليين في المغرب على مدى قرنٍ من الزمن بعد استيلائهم على سبتة للسبب ذاته، وبالفكرة نفسها[25].

ويرى المؤرخ المغربي عبدالله العروي أن الدافعَ الدينيَّ يبدو أنه كان

---

(21) Rézette, R., **The Spanish Enclaves in Morocco.** Paris 1976, P. 30.

(22) Bell, C., **Portugal and the Quest for the Indies,** London 1974, P. 35.

(23) O'Callaghan, PP. 556, 547.

(24) Lomax, P. 162.

(25) Prestage, E., «Portuguese Expansion Overseas, Its Causes and Results» in **Chapters in Anglo- Portuguese Relations,** Watford 1935, PP. 173- 4.

الدافعَ الحاسمَ في سياسة دول شبه جزيرة إيبرية تُجاه شمال افريقيا، وانه ينبغي النظرُ إلى الهجوم الإيبري على المغرب على أنه في أساسه حملةٌ صليبيةٌ وردُ فعلٍ على إخفاق الحملات الصليبية في المشرق وعلى الخطر العثماني الجديد الذي كان يهدِّد شرقَ أوروبا[26].

إن من الخطأ ـ كما يرى الباحث بين Piyne ـ أن يتساءل المرء عما إذا كان الدافعُ للفاتحين البرتغاليين والإسبان الجشعَ والمكسبَ المادي أو الحميَّةَ الدينية. ففي الإيديولوجية التوسعية الصليبية لسكان شبه جزيرة إيبرية، كان العاملان متواكبيْن ومتلازميْن. «إن الحربَ الصليبيةَ والربحَ كان ينُظر إليهما على أنهما شيئان يكمل الواحد منهما الآخر»[27].

وبتجديد الحملات الصليبية القديمة ضد المسلمين، كان ملكُ البرتغال جون الأول يأمل في أن يحوزَ رضا البابوية وأوروبا وتأييدَهما. إن مجمعَ كونستانس الذي دُعي إلى الإنعقاد في شهر نوفمبر عام 1414 م كان ينتظر أن يضع حداً للانقسام البابوي وينهيه، ورأى البرتغاليون أنهم إذا شنوا حملة صليبية أمكنهم أن يتوقعوا رضا البابا الجديد والتوصلَ إلى سلمٍ مع قشتالة. وقد جاء الاقتراحُ بالقيام بحملة ضد سبتة من جانب رئيس أساقفة لشبونة وممثل جون الأول في المفاوضات مع قشتالة في كونستانس[28]. وجدير بالذكر أن البابا أصدر عدة مراسيم يأذن فيها لملك البرتغال بمهاجمة المسلمين وإخضاعهم لحكمه، وبأخذ أموالهم وأراضيهم، وباسترقاقهم، وبأن تؤول أموالهم وأراضيهم لملك البرتغال وذريته من بعده[29].

ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي استهوت خيال الأوروبيين فكرةُ بريستر جون الملك المسيحي لبلادٍ مجهولةٍ في آسيا، ثم بدا للبرتغاليين أنه ملك اثيوبيا النصراني الذي تطلّعوا إلى الوصول إليه والتحالفُ معه لشنِّ هجوم على المسلمين من عدة جهات[30].

---

(26) Laroui, A., **The History of the Maghrib,** Princeton V.P. 1977, P. 235.

(27) Payne, PP. 188- 90.

(28) Livermore, P. 108.

(29) Boxer, PP. 20- 21.

(30) O'Callaghan, P. 556. Livermore, P.111.

(ب) دوافع اقتصادية:

لا تقلُّ عن الدوافع الصليبية لغزو البرتغاليين سبتة الدوافعُ الاقتصاديةُ، كالظفر بالأسلاب والغنائم، وتلبية رغبات الطبقة البرجوازية النامية في مدن البرتغال، والحصول على ذهب السودان الغربي عن طريق سبتة، فضلاً عن ثروات المغرب ذاته، وتعزيز تجارة البرتغال في منطقة البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت التجارةُ وقفاً على تجار المدن الايطالية وحِكْراً لهم.

إن بعض المؤرخين المُحْدثين لم يعودوا يكتفون بالتفسير التقليدي لأخذ سبتة بأنه أوحى به الحماسُ الصليبيُّ والرغبةُ في تحقيق الأمجاد والبطولات الحربية. ويرى هؤلاء المؤرخون أن الدوافعَ الاقتصاديةَ والاستراتيجيةُ لا بد وأنه كان لها دَوْرٌ كبيرٌ في أذهان مخططي الحملة. فسبتة ـ كما يصفها الأنصاري ـ كانت مدينةً تجاريةً مزدهرة، وهي منفذ رئيسي لصادرات المغرب وأحدُ المراكز التي تنتهي إليها تجارةُ ذهب السودان الغربي عبر الصحراء. إن الدافعَ للحصول على الذهب كان دافعاً مهماً، إذ كان على الذهب طلب كبير خلال القرنين الأخيرين من القرون الوسطى في غرب أوروبا. فخلال هذه الفترة ضُربت العُملة الذهبية في بلد تِلْوَ آخر على غرار الفلورين الذهبي بفلورنسة الذي ضُرب عام 1252 م، والدوقة الذهبية التي ضُربت في البندقية في حدود عام 1280 م. ولم يكن للبرتغال عُملة ذهبية خاصة بها منذ عام 1383 م، فكانت من بين الممالك الأوروبية القليلة في هذا الوضع[31].

إن أسرة أفيس جاءت إلى الحكم سنة 1385 بفضل مساندة الطبقة البرجوازية من تجار المدن، وهي طبقة احتلَّتْ مصالحُها التجاريةُ المقامَ الأولَ في سياسة المملكة. وكان تجارُ لشبونة وأبورتو يطمعون في تجارة البحر المتوسط المُجزية التي كانت تحتكرها جمهوريتا البندقية وجنود وتجارُ المسلمين، بما فيهم تجار سبتة[32].

وكان البرتغاليون يطمعون كذلك في ثروات سبتة والمغرب الاقتصادية،

---

(31) Boxer, PP. 18- 19.

(32) Julien, PP. 207- 8. Bell, P. 34.

كمصائد الأسماك في مياه سبتة وقبالة سواحل المغرب. وكانت تُحاك في فاس أقمشةٌ تُصدَّرُ عن طريق سبتة، وكان عليها إقبال في جنوب أوروبا. وكانت سبتة منفذاً رئيسياً لصادرات المغرب من الحبوب التي كانت البرتغال كثيراً ما تفتقر إليها[33].

كان الداعي الرئيسي لحملة سبتة خوان أفونسو Jono Afonso المُشرفُ الملكيُّ على المالية والممثلُ الرئيسيُّ للطبقة البرجوازية في الحكومة. إن الأزمةَ الطويلةَ التي كانت تعاني البرتغال منها قُبيْل حملة سبتة نتيجةً لحروبها مع قشتالة أدت إلى نقصان كبير في موارد الدولة، مما حدا بالملك جون الأول إلى العبث بالعملة وتخفيض قيمتها لتسديد ديونه[34].

إن الهدفَ الرئيسيَّ للتوسع البرتغالي في القرن الخامس عشر الميلادي لم يكن الرغبةَ في السيطرة على أراضٍ عبر المحيط، بل السيطرة على ساحل المغرب. ففي المغرب ذاته كانت تتوفر العديد من السلع المطلوبة كالقمح والماشية في الشمال، والسكر وبعض المنسوجات، وكذلك الأسماك والجلود والشمع والعسل. فحبوب المغرب ستساعد على سدِّ ما كانت تعاني منه البرتغال من نقص في انتاجها لها، بالإضافة إلى جاذبية تجارة ذهب السودان[35].

ويرى باربر Barbour أن ما دَفعَ إلى القيام بحملة سبتة الطموحُ من جهة، والرغبةُ من جهة أخرى في إيجاد منفذٍ للمغامرين الذين أصبحوا عاطلين عن العمل، بعد أن تمَّ إبرامُ السلم مع مملكة قشتالة[36].

(ج) دوافع سياسية:

كانت البرتغال طوال القرن الخامسَ عشرَ مملكةً متحدةً خاليةً تقريباً من

---

(33) Krueger, H., «Genoese Trade...», in **Speculum, 3(1933), P. 382. Bell, P. 34.**

(34) Payne, P. 191. Livermore, P. 108.

(35) Payne, P. 192.

(36) Barbour, N., **Morocco,** London, 1965, P. 98.

الحروب الأهلية في الوقت الذي كانت فيه بلدانُ غرب أوروبا الأخرى تهزُّها في معظم ذلك القرن الحروبُ الخارجيةُ أو الأهليةُ، كحرب المائة سنة بين انجلترا وفرنسا، وحروب الوردتَيْن بانجلترا، أو أنها كانت مشغولةً بخطر زحف الأتراك العثمانيين في البلقان وفي الشرق الأدنى. وفي شبه جزيرة ايبرية، كانت قشتالة وأرجون تمران بفترة من القلاقل أقربَ ما يكون إلى الفوضى المدمرة، قبل تولي فرديناند وازابيلا الحكم. وقد حالتْ هذه الأوضاعُ ـ إلى حد كبير ـ دون منافسة قشتالة للبرتغاليين منافسة فعالة، وهو ما كان سيحدث لولا تلك القلاقل[37].

وكانت البرتغالُ حريصةً على أن لا تقع سبتة في أيدي منافسيها، إذ كانت سبتة قبلٍ ذلك قد اجتذبتْ أنظار قشتالة وحتى جنوة التي حاول تجارُها الاستيلاء ـ عبثاً ـ على سبتة عام 633 هـ[38] . إن مبادرةَ ملك البرتغال ومستشاريه إلى اتخاذ القرار الخاص بتجهيز حملة لأخذ سبتة كان رداً على بوادر اهتمامات قشتالة، كالغارة على تطوان سنة 1400 م، وقبولها تبعية جزر الكناري لها[39].

انتهت الهدنةُ بين البرتغال وقشتالة وأُبرم سلمٌ بين المملكتين سنة 1411 م. وكان على عرش قشتالة آنذاك الطفلُ خوان الثاني تحت وصاية عمِّه فرديناند الذي كان يصبوا إلى الحصول على عرش أرجون لنفسه، مما أشغله عن الاهتمام بقضايا غرناطة والبرتغال. فقرر ملكُ البرتغال جون الأول ـ وقد أمِنَ خطرَ قشتالة ـ الشروعَ في حملة سبتة[40].

(د) القرصنة:

يصف الكُتَّابُ الانجليز والفرنسيون ـ دون البرتغاليين ـ الهجومَ البرتغاليَّ على سبتة سنة 1415 م بأنه كان «ثأراً لأعمال القرصنة المغربية». والواقع أنه

---

(37) Boxer, P. 18.

(38) Bell, P. 34.

ابن عذاري، أبو العباس أحمد: البيان المغرب، القسم الثالث، قطوان 1960، ص 6 -347.

(39) O'Callaghan, P. 547.

(40) Livermore, **Portugal,** Edinburgh V.P. 1976, P. 70.

مع أن الأندلسيين الذين طُردوا من بلادهم كانوا يُغيرون على سواحل اسبانيا وسفنها، فإنه يبدو بأن التجارةَ البرتغالية لم تتعرَّضْ لأذىً يُذكر. وقد عارض ملكُ البرتغال باديءَ الأمر فكرةَ الهجوم على سبتة بحجة أن الهجوم سوف يؤدي حتماً إلى قيام المغاربة بالثأر من السفن البرتغالية في مضيق جبل طارق، مما سيعرِّض للخطر تجارةَ البرتغاليين المُجزية بزيت الزيتون والنبيذ مع مولنيء البحر المتوسط. وكان الملكُ من جانبه يحبِّذ القيامُ بهجوم مشترك مع القشتاليين ضد مملكة غرناطة أملاً في أن تستحوذ البرتغالُ على أراض جديدة في شبة جزيرة ايبرية[41].

وقد أخذ المخطِّطون لحملة سبتة في حسبانهم أن تصبح سبتة بعد استيلاء البرتغاليين عليها مأوى تلجأ إليه السفنُ المسيحيةُ الفارةُ من غزاة البحر المسلمين من شمال افريقيا، كما يمكن اتخاذُها نقطةَ انطلاقٍ للسفن البرتغالية المهاجمة للسفن العربية. وفي الواقع، فإنه بعد أخذ سبتة أنشأ الوالي البرتغالي بسبتة سفناً كانت تَكْمنُ لسفن المسلمين التي تتردد على مينائي جبل طارق ومالقة[42].

إن سيطرة الإيطاليين والإيبريين على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط ألحقت ضرراً كبيراً بتجارة المغرب واقتصاده. ولما عجز المغاربةُ عن حماية تجارتهم لجأوا إلى القرصنة، وهي شكل من أشكال الحرب، تماماً كما فعل الإنجليز بعد ذلك بقرنين في صراعهم مع الاسبان[43].

وبعد استيلاء البرتغاليين على سبتة ـ التي فتحت باب البحر المتوسط على مصراعيه ـ لم تلبث سفنهم أن أصبحت من حيث العدد والنشاط كسفن البَسْكيين في مياهه. فأصبحت مراكبُ البرتغاليين تقدِّم خدماتها الملاحية، كما أصبح قرصان البرتغال يفرضون شروطهم. ففي اكتوبر سنة 1501 م أسروا مركباً

---

(41) Barbour, PP. 978.

(42) Bell, P. 34. Livermore, P. 109.

(43) Laroui, P. 234.

جنوباً قرب سواحل المغرب، وكانوا إذا أسروا ركاباً مغاربة فرضوا عليهم مبالغ كبيرة لافتداء أنفسهم[44].

(هـ) أمجاد الفروسية:

تعزو الروايةُ التقليديةُ قيامَ حملة سبتة إلى رغبة ملك البرتغال الثلاثة ـ دوارتي وبدرو وهنري ـ في المشاركة في عمل حربي باسل ما، يؤهلهم لتسلُّم رتبة الفروسية. وقد وجدوا ضالتهم في الاقتراح الخاص بمهاجمة سبتة، كما أن الفكرة كانت استجابةً للمعتقدات الدينية التي ورثوها عن والدتهم فليبا. كانت الحرب في خدمة الله والملك لا تزال العملَ المشرِّفَ لفارس القرون الوسطى، وبخاصة محاربة المسلمين. وكان للفرسان أن يتوقعوا التكريمَ والانعاماتِ من الملك جزاء بلائهم في الحرب، فضلاً عن المكافآت المالية والإقطاعية[45]. إن الفارسَ من النبلاء الذي كان يحرمه القانون من المبارزة في بلده كان يتوجَّه إلى الخارج ـ إلى غرناطة أو إلى سبتة[46].

الرواية البرتغالية عن حملة سبتة:

إن تواريخَ جوميس إيانيش دي أزورارا Gomes Eannes de Azurara ـ وبخاصة تاريخه عن الملك جون/ خوان الأول ـ تروي قصةَ أخذ البرتغاليين مدينة سبتة، بعد عشر سنوات من سقوط المدينة، بأسلوب حكايات الفروسية فتقول:

حاول ابنا الملك جون الأول إقناع والدهما بالمشاركة في حملة باهرة لكي يتسنى لهما أن يُرسَّما فارسيْن، إلا أن الملك عارض مشروع الحملة بحجة تكاليفها وما تحتاج إليه من رجال وعتاد. كما أنه تردَّد في تجريد مملكته

---

(44) Braudel, F., **The Mediterranean and the Mediterranean Worth in the Age of Philip II**, London 1978, P. 608.

(45) O'Callaghan, P. 547. Bell, P. 32.

(46) Hillgarth, J.N., **The Spanish Kingdoms (1410- 1516)**, Vol. II, Oxford V.P. 1978, P. 62.

من الجند طالما بقي السلم مع قشتالة غير ثابت. كما أشار الملكُ إلى أن المغاربة سيذكرون دَوْماً بكل مرارة «هزيمتهم على أيدينا، وسيأخذون في مهاجمة سفننا قرب ساحل إقليم الغرب (بجنوب البرتغال). كما قال إن البرتغاليين سوف يفقدون كل أمل في إرسال مراكبهم وبضائعهم إلى مدن حوض البحر المتوسط، وذكّر بالمصير الذي سيؤول إليه أسراهم في أيدي المغاربة.

وأخيراً أقنع هنري والدُه بأنه يقلِّل من قيمة القوات البرتغالية، وبأنه لا وجهَ للمقارنة بين قشتالة المسيحية وبين «الكفار الذين هم أعداء طبيعيون لنا». وأضاف بأن تسهيلَ استيلاء قشتالة على غرناطة من شأنه أن يعود بالفائدة على البرتغال، إذ سينشغل القشتاليون بمشاكل غرناطة، مما سيجعل البرتغال تنعم بالسلام زمناً طويلاً.

وكما هو الحال في كافة الحروب «الجيدة» بدأت حملةُ سبتة بإيفاد رسُلٍ للاستطلاع وجمع المعلومات حول المدينة وتحصيناتها. وجالت بخاطر الملكِ خطة أشار إليها المؤرخون بأنها «حيلة بارعة». فقد سلَّح سفينةً لإرسالها إلى ملكة صقلية ليعرض عليها الزواجَ من ابنه بدرو. ولما كانت الملكةُ قد أعربت عن ميلها للزواج من دوارتي/ إدوارد وارثِ العرش، فإن ملك البرتغال كان لا يشكُّ في أنها سترفض عرضه. وبذلك أُتيحت لرسُلِه فرصةُ الجواز بمدينة سبتة ومعاينة ما يريدون.

ولكي يبرِّرَ الاستعداداتِ الحربيةَ الجاريةَ وتجهيزَه الأسطول، قرر الملكُ جون «أن يتحدى دوق هولندا وأن يهدِّده بالحرب إن هو لم يوقف الأضرار والسرقات التي كان رعاياه يوقعونها بالتجار البرتغاليين المارين بمضائق بلاده». وبالطبع فإن الدوق ـ وكان على علم مُسْبقٍ بكل ذلك ـ تظاهر بتصديق التهديد. ثم بعث الملك جون برسُلِه لاستئجار السفن من غليسية وبسكاي، وحتى من انجلترا وألمانيا. كما أن الفرسانَ الانجليزَ والفرنسيين عرضوا عليه خدماتهم.

توقف الأسطول ـ وقوامه 200 سفينة وخمسون ألفَ رجل ـ في مرسى الجزيرة الخضراء بعد أن قدَّم الملك جون كافةَ الضمانات لملك قشتالة. في البداية صادفت الحملةُ بعضَ التعثر إذ هبَّت ضبابةٌ كثيفةٌ جعلت الأسطول

يتحوَّلُ إلى ناحية مالقة بسبب التيارات، ووقعت بعضُ الاشتباكات مع مسلمي غرناطة الذين حسبوا أن الهجوم سوف يقع على أراضيهم.

كما أن الطاعون الوافد من لشبونة تفشَّى بين الجند في عدة سفن. ومع ذلك، فإن الاسطول توجَّه آخرُ الأمر إلى سبتة. ونزل الجنودُ إلى البر، ودارت معركة عنيفة، وكان يقود الجندَ الأميران إدوارد وهنري.

وخاطب صالح بن صالح «صاحبُ سبتة» ـ كما تذكر التواريخ ـ البرتغاليين بالعبارات التالية: «إننا لا نخشى هجومَ النصارى علينا، فهم ليسوا كثيرين عدداً، وبوسعنا قتالهم، ومن يدري؟ فلعلَّهم يُتيحون الفرصةَ لنا للظفر بنصر كبير... ومن الممكن أن يقعَ أسطولُهم في أيدينا. وقد نستعمل أوانيهُم الذهبيةَ والفضيةَ في أعراس أبنائنا... إن الأسطول قسمان، ونعتقد أنهم سينزلون اليوم إلى البر، وسوف نذبحهم على الشواطىء، إذ إن أكثرهم مثقلون بالدروع لا يَقْوَوْن على الحركة إلا ببطء وصعوبة، بينما نحن خفافٌ ونستطيع التحرك بسرعة ومهاجمتهم. وإذا سقطوا على الأرض تَعذَّر عليهم النهوض. وأنَّى لهم ذلك، وهم كجلاميد الصخر وزناً».

ولم يكن بالأمر الهيِّن الهجومُ على أسوار سبتة الثلاثة المتتالية والقتالُ في أزقَّة المدينة وشوارعها الضيقة التي يسهل الدفاعُ عنها. وقد دامت المعركة خمسَ ساعات دون توقف. وقام المغاربة ـ وهم أكثرُ عدداً وأقلُّ سلاحاً ـ بالهجوم على المغيرين وحتى بدون سلاح، ودفنوا كنوزهم في الآبار. أما القتل والنهب فكانا بدون رحمة أو شفقة.

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر اغسطس، قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبتة إلى كنيسة كاثوليكية، وأقيم فيها حفل كبير وصلاة شكرٍ في يوم الأحد التالي (25 /8 /1415 م). وجرى في ذلك الحفل ترسيمُ أبناءِ الملك الثلاثة ـ حسب رغبتهم ـ فرساناً.

وَوُلِّي على المدينة الكونت بدرو دي منيزيس Pedro de Menezes وتُركت معه حامية قوامها 2700 رجل، وسفينتان لحراسة المضيق.

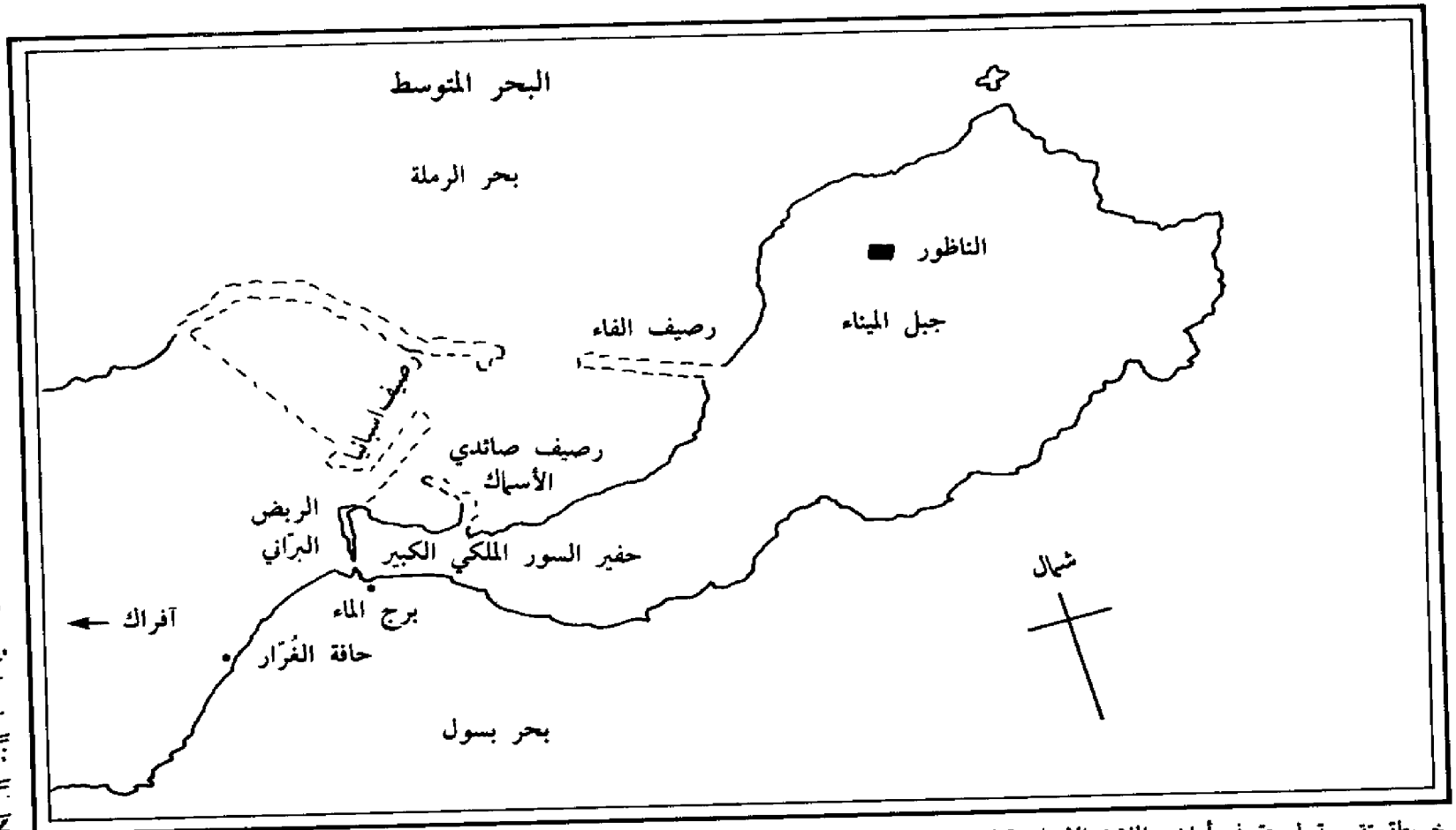

خريطة تقريبية لسبتة في أواخر الفترة الإسلامية كانت المدينة ذاتها تقع على البرزخ شرقي الحفير الكبير. وقد حدّ من امتداد المدينة شرقاً طبيعة الأرض الجبلية

وبعد ذلك بثلاث سنوات قام «أهلُ فاس وأهل غرناطة وملك مراكش وملك تونس وملك بجاية، ومعهم الأسلحة والمدافع الكثيرة» بمحاصرة سبتة براً وبحراً. وقد قُدِّرت التواريخُ البرتغاليةُ عددهم بمائة ألف رجل، بمبالغةٍ تتفق مع الأسلوب الملَحْي الذي دُوِّنت به تلك التواريخ. وهرع الأمير هنري الى نجدة المدينة بأسطول جديد، وبعد «أن أوقع مذابحَ بالمسلمين، حَرَّر المدينةَ وعاد ظافراً إلى البرتغال»، وكان غاضباً لأن «الظروف لم تسمحْ له بأخذ مدينة جبل طارق كما كان قد خطَّط»[47].

رواية صاحب (الاستقصا) والمُحْدَثين عن حملة سبتة:

لا تتوفر لدينا في المصادر العربية تفاصيلُ كافيةٌ عن حملة سبتة، فيما عدا نتفٍ أوردها صاحبُ (كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى)، الذي ذكر بأن استيلاءَ البرتغاليين على سبتة كان بعد حصار طويل للمدينة، وأنه كان على أثر خديعة لجأوا إليها. فقد نَقَل عن صاحب (نشر المثاني) قَوْلَهَ «إن النصارى جاءوا بصناديقَ مقفلةٍ يوهمون أن بها سلعاً وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين، وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة 818. وكانت تلك الصناديقُ مملوءةً رجالاً عددهم أربعةُ آلافٍ من الشباب المقاتلة، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولَوْا على البلد... وسمعتُ من بعضهم أن الذي جرَّأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أميرَ سبتة على أن يفوِّضَ إليهم التصرفَ في المرسى والاستبدادَ بغلتها ويبذلوا له خراجاً معلوماً في كل سنة، فكان حكمُ المرسى حينئذ لهم دون المسلمين، ولو كان المسلمون هم الذين يَلُون حكمَ المرسى ما تركوهم يُنزلون ذلك العددَ من الصناديق مقفلةً لا يعلمون ما فيها». ويضيف صاحبُ (نشر المثاني) بأن أهلَ سبتة جاءوا إلى سلطان فاسٍ مستصرخين «وعليهم المسوحُ والشَعْر والوبر والنعال السود رجالاً ونساء وولداناً، (إلا أن السلطان) ردَّهم إلى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم حتى تفرقوا في البلاد». وما أن تمَّ للبرتغاليين الاستيلاءُ على سبتة حتى قاموا بتحصينها[48]. وينقل الناصري عن مؤرخٍ

---

(47) Rézette, R., **The Spanish Enclaves in Morocco**, Paris 1976, PP. 29- 33.

(48) الناصري، أبو العباس أحمد: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الرابع، الدار=

برتغالي. اسمه منويل ما مفاده أن عبد الله بن أحمد ـ المعروف بسيدي عبو ـ اغتصب المُلكَ من أخيه السلطان المريني أبي سعيد عثمان، ولكنه «تكدَّر عَيْشه بذهاب سبتة... وتكدَّر المسلمون غايةً لفوات هذه المدينة العظيمة منهم»[49].

ويُذكر أن أهل سبتة توجهوا إلى فاس ملتمسين مساعدةَ السلطان عبد الحق لدحر المغيرين البرتغاليين، وأرفقوا التماسهم بهذه الأبيات المؤثرة على ضعفها:

هتك النصارى علينا حرمةَ سبتة ... غدراً بنقض مواثق وعهود
غدرونا فجر غَروبةٍ بصنادق ... حطَّت صناديد صرعة كقرود
ألفان في ألفين من أبطالهم ... عظماءُ أجسامٍ طوالُ قدود
فقصدنا بابك ضارعين، لَبوسُنا ... أخمارُ من شَعْرٍ ونعل سود
فعساك تَجْبرُ صدع قومٍ خانهم ... دهرٌ كسا للكلِّ ثوبَ يهود

وقد صرَّح السلطانُ بضعفه عن نصرتهم كما يتبيَّن من الجواب الذي أمر كاتبَه المنجِّمَ بتحريره رداً على استصراخهم، وفي الجواب أبياتٌ ضعيفةٌ منها البيت التالي:

فلقد عجزتُ عن الدفاع كمن مضى ... من عز آباء وأسمى جدود

إلا أن البرتغاليين لم يهدأْ لهم بالٌ ولا طاب لهم مقامٌ منذ ين وطئتْ أقدامهُم أرضَ سبتة، إذ تعرضوا لهجمات مستمرة من جانب رجال القبائل من المناطق المجاورة لسبتة والمتطوعين المجاهدين من أنحاء المغرب، وبخاصة

= البيضاء 1955، ص 92 -93.

وبعد مائة سنة ذكر الحسن الوزان أن البرتغاليين بعد احتلالهم سبتة مكثوا فيها «نحو ثلاثة أسابيع متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها، لكن أبا سعيد (المريني) الذي كان ملكاً على فاس آنذاك تخاذل ولم ينهض لاستردادها بل بالعكس أتاه الخبر وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال. وقد قضت مشيئة الله أن يُقتل هذا الملك بعد ذلك شر قتلة بيد أحد كتَّابه السابقين... وهلك سبعة من أبنائه... وذلك عام 824 هـ». (الحسن الوزان: وصف افريقيا، الجزء الأول، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1980، ص 246).

(49) المصدر السابق، ص 94.

مدينة فاس[50]. وتقول الروايةُ البرتغاليةُ إن بدرو دي منيزيس أولَ ولاةِ البرتغال على سبتة كان يرتدي درعه باستمرار على مدى ستةَ عشرَ عاماً لكي يكون على أهبةٍ في حالة وقوع هجوم من جانب المسلمين، وكانت هجماتهم لا تنقطع طوال فترة ولايته (1415 -1437 م)[51].

إنَ حملةَ سبتة كانت تحتاج إلى المال والسفن والرجال والأسلحة. أما المال فقد تمَّ الحصولُ عليه من أصحاب المصارف وعن طريق العَبثِ بالعملة. وأما السفن فقد جُمعت من كافة موانىء كنتبرية ومنطقة خليج بسكاي[52]. وفي خطابٍ لملك انجلترا هنري الخامس بتاريخ 26 سبتمبر 1414 م يأذن لممثل البرتغال بشراء 400 رمح، كما يأذن في خطابٍ آخرَ بتاريخ 26 يناير 1415 م بشراء 350 رمح، وبتجنيد عدد من الرجال المسلحين[53].

لم تُجْدِ تحصيناتُ سبتة كما لم يُجْدِ الرماةُ والمدافعون عنها في وجه القوات البرتغالية الغازية، فمع أن أعدادَهم كانت كبيرةً إلا أن أساسَ نجاح الحملة يكمُنُ في عامل المباغتة الذي هيَّأه تخطيطُ المغيرين الدقيق لها[54].

ولما وافق ملكُ البرتغال على قيام الحملة، أصرَّ على مشاركته بنفسه فيها أملاً ـ على حد قوله ـ في أن يغفرَ سفكهُ لدماء «الكفار» ما كان قد سفكه من دماء النصارى[55].

ومما يُذكر أن صائغاً يهودياً من مدينة يابرة Evorn طالب في سنة 1439 م بمكافأة ـ وتسلَّمها ـ في مقابل الخدمة التي قدَّمها للاستيلاء على سبتة، وفي الحملة الفاشلة ضد طنجة عام 1437 م، إذ ادعى بأنه ساهم فيها «بحصانه

---

(50) ابن تاويت، محمد: تاريخ سبتة، الدار البيضاء 1982، ص 8 -179.

(51) Rézette, P. 34.

(52) O'Callaghan, P. 547.

(53) Livermore, P. 108.

(54) Latham, D. «The Strategic Position and Defence of ceuta...», in **Islamic Quarterly**, 15(1971), P. 204.

(55) Barbour, P. 98.

وسلاحه وبجنديَّيْن من الشاة»[56].

إن الثغر Fronteirn الجديدَ للبرتغالِ لم يواجهْ سوى هجومٍ واحدٍ ذي بالٍ شنَّه المغاربةُ والغرناطيون معاً عام 1419 م، ولكنه فشل بسببِ الخلافات في صفوف بني مرين. وفي العام التالي، اغتيل السلطانُ المرينيُّ أبو سعيد عثمان وتفاقمت بمقتله الحربُ الأهليةُ بالمغرب[57].

النتائج المباشرة لسقوط مدينة سبتة:

وختاماً للبحث نوجز فيما يلي النتائجَ المباشرةَ التي ترتَّبتْ على استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة المغربية التي آلت إلى إسبانيا منذ عام 1580 م عندما ضمَّ ملكُ اسبانيا فليب الثاني البرتغالَ إلى مملكته، وما زالت سبتة في أيدي الإسبان إلى اليوم.

كانت النتائجُ الماديةُ لأخذ سبتة مخيِّبةً للآمال، ولم تَبْدُ للعيان فوائدُ مباشرةٌ نتيجة للاستيلاء عليها. إن أخذ سبتة بيَّن أن الاستيلاء على المدينة لم يكنْ له غير أهمية رمزية، ولم تُبذلْ محاولةٌ لاستغلال احتلالها قبل عام 1437 م بحملة طنجة التي باءت بالفشل[58].

إن المدينة ـ وبخاصة مخازن التجار ومتاجرهم ومنازلهم ـ تعرَّضتْ لأعمال النهب والسلب من قِبَل الجند، وذهبت طُعمةً للنيران محتوياتُ المتاجر والمخازن من التوابل والثياب الرفيعة والسجاجيد الشرقية[59].

أما سكان المدينة فقد قُتل الكثيرون منهم، واسُترقَّ بعضهم، ونزح عن المدينة المنكوبة من استطاع من ساكنيها. وبعد يومين من سقوط المدينة، بادر ملكُ البرتغال إلى تحويل مسجدها الجامع مسجدها الجامع إلى كنيسة هي اليوم كاتدرائية سبتة.

---

(56) Boxer, P. 12.

(57) Julien, P. 208.

(58) Bell, P. 41. Livermore, P. 111. Atkinson, P. 98.

(59) Bell, P. 41.

إن معظمَ التجارة التي كانت تمرُّ بسبتة وقت أن كانت في أيدي المسلمين توقَّفتْ وتحوَّلتْ عنها إلى موانىء شمال افريقيا الأخرى. وفي حين أن بعضَ أفراد الحامية كانوا يقومون بنهب المزارع والبساتين في أحواز سبتة، أو بمزاولة القرصنة في مضيق جبل طارق، فإن الملك لم يَجْنِ من انتصاره مكسباً مالياً يُذكر، فهو لم يَزِدْ من إيراداته، بل أصبح لزاماً عليه الإنفاقُ على حامية المدينة وقوامها 3000 رجل[61]. إن سبتة «وقد خلَتْ من سكانها، وأصبحت في عُزلةٍ عن المنطقة المحيطة بها أصبحت ـ بعد أن كانت ذات يوم ميناءً مزدهراً ـ عبئاً ثقيلاً على الخزانة البرتغالية»[61].

وقد مكَّن احتلالُ سبتة البرتغاليين من الحصول على بعض المعلومات حول بلاد السودان في أعالي نهريْ السنغال والنيجر، وهي مصدر الذهب بالنسبة للمغرب. وكان البرتغاليون يَصْبُون إلى الاتصال المباشر بمصادر الذهب في السودان الغربي، إذ لم تكن للبرتغال عُملةٌ ذهبيةٌ خاصةٌ بها منذ عام 1383 م، فكانت من بين الممالك الأوروبية القليلة في مثل هذا الوضع[62].

إن الاستيلاءَ على سبتة قوبل بالترحيب في أوروبا المسيحية، وأثار حماساً كبيراً لأنه كان شبهَ حملةٍ صليبيةٍ، وكان من شأنه تعزيزُ هيبة البرتغال وملكها في أوروبا. كان الأتراكُ العثمانيون يتوغلون آنذاك في شرق أوروبا، وقُدِّر لهم الاستيلاءُ على القسطنطينية والإجهازُ على الدولة البيزنطية عام 1453 م، ولذلك فإن العالم المسيحي نظر إلى أخذ سبتة على أنه أولُ هجوم مضاد ناجح ضد الإسلام[63].

وبعد أخذ سبتة، بدأ البرتغاليون في مزاولة القرصنة في مياه غرب البحر المتوسط. فقد أنشأ حاكمُ سبتة البرتغالي سفناً كانت تَكْمُن لمراكب المسلمين التي تتردد على مينائيْ جبل طارق ومالقة، وأصبح قراصنةُ البحر البرتغاليون يفرضون شروطهم على المراكب في البحر التوسط، ويأسرون من فيها من المغاربة،

---

(60) المصدر السابق، ص 41.

(61) Laroui, P.234.

(62) Boxer, P. 19.

(63) Bell, PP. 41- 42.

ويسترقُّونهم، ما لم يقوموا بفداء أنفسهم[64].

كان احتلالُ سبتة بدايةً لتوسع استعماري أدى خلال القرن الخامسَ عشرَ الميلادي إلى احتلال العديد من موانىء المغرب من قِبَل الإسبان والبرتغاليين، كما كان فاتحةَ سيطرة أوروبا على قارتيْ افريقيا وآسيا واستعمارِ أراضيهما[65]. وبأخذ سبتة أصبح للبرتغال أولُ قاعدة في افريقيا، ومنها أصبح بإمكانها التغلغلُ في القارة الافريقية، أو حتى شنُّ هجومٍ على جبل طارق عبر المضيق[66]. ويبدو أن رحلاتِ الكشوف البرتغالية في المحيط الأطلسي، والتي يقترن بها اسمُ الأمير هنري الذي اشتهر ـ خطأً ـ باسم هنري الملاح، بدأتْ في حدود عام 1419 م، أي بعد أربع سنوات من تاريخ أخذ سبتة من أيدي المغاربة[67].

وفي مجال العلاقات المرينية النصرية، كان سقوطُ سبتة يعني أن المغربَ وغرناطة كليهما أخذا يُدركان الخطرَ الداهمَ مما أدى إلى تعاونهما عام 1419 م في شن هجومٍ على سبتة باء بالفشل. وإن وجود النصارى بين فاس وغرناطة وضع حداً لما كانَ لبني مرين وبني نصر من تأثير في المصير السياسي في البلدين[68].

إن سقوطَ مدينة سبتة في أيدي البرتغاليين أثار موجةً من السخط والذعر في المغرب والعالم الإسلامي، وكان أحدَ العوامل الرئيسية التي عجَّلت في نهاية حكم بني مرين، كما أدى إلى نشاط شيوخ الطرق الصوفية في إذكاء روح التضحية والجهاد في نفوس المغاربة ذياداً عن الإسلام، ودفعاً لعادية الغزاة من النصارى عن سبتة وغيرها من مدن المغرب الساحلية التي سقطت في أيديهم. «ولم تتوقف القبائلُ المجاورةُ لسبتة عن شنِّ هجماتها على حامية المدينة، وتَعذَّر على الحامية البرتغالية إخضاعُ تلك القبائل، كما تعذَّر على البرتغاليين مزاولةُ التجارة من المدينة، واقتضى الأمرُ تزويدَ الحامية بالمؤن عن طريق البحر»[69].

---

(64) Livermore, P. 109. Braudel, P. 608.

(65) Abun-Nasr, P.133.

(66) O'Callaghan, P. 548.

(67) Boxer, P. 15.

(68) Abun- Nasr, P. 134.

(69) Livermore, P. 109.